

# التشريع للهوقصاري للهسلاهمي

ودورالإمام محمد بن الحسن الشيباني في إرساء دعائمه

د . سهيل زكار

جامعة دمشق

تميز المجتمع الأول الذي قام الاسلام في وسطه بسيطرة الروح التجارية عليه ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه شارك قبل البعثة بالأعمال التجارية ، ويلاحظ من قراءة السور المكية في القرآن مع مختلف مصادر تاريخ مكة قبل الاسلام وأثناء الدعوة اليه قبل الهجرة ، مدى انغماس المكيين في أعمال التجارة ، وكيف أن السعي وراء الكسب كان هدف جل رجالاتهم ، وذلك بلا ضوابط أو روادع ، ولهذا يمكن القول بأن الفترة المكية من تاريخ الاسلام كانت فترة صراع ضد التجار أكثر منها صراعاً دينياً ، ذلك أن مكة لم يكن فيها رجال دين ، ولا حكومة منظمة بل أديرت من قبل التجار وأصحاب الأموال •

هذا وقد أسهم المكيون في عدد من الأعمال ذات الصلة المباشرة بالتجارة ، مثل بعض الأعمال الزراعية خارج مكة ، وبعض الأعمال الصناعية مثل دباغة الجلود ، كما عقدوا المعاهدات التجارية واتفاقات للمرور •

وبعد الهجرة الى المدينة تغيرت طبيعة الأجواء التي عاشها المسلمون ، فالمدينة تميزت بطبيعتها الزراعية مع وجود بعض الحرف فيها التي مارسها اليهود من حدادة وصياغة وما نازرها •

وعلى هذا الأساس عاش الاسلام في تاريخه المبكر تجربة اقتصادية شبه كاملة ، فيها تجارة وصناعة وزراعة وتربية مواشي وحيوانات ، وقام هذا الدين الحنيف بالتشريع لهذه الجوانب الاقتصادية ، ودون الوقوف طويلاً عند مدى التجديد في التشريع الجديد ومدى الفوارق بينه وبين الأعراف التي كانت سائدة من قبل ، يكفينا القول أنه وجد في الاسلام أسس تشريع كامل منظم للحياة الاقتصادية ، كما أن قانون الحرب في

الاسلام قد تولى مسألة توزيع الغنائم وموارد الحرب ، ثم ان النظام الضرائبي قد عالج مسائل الجباية مع أوجه الصرف •

وهكذا عندما تأسست نواة الأمة الاسلامية الأولى في التاريخ ، وقام لها دولة الاسلام المركزية الأولى في المدينة كان هناك نظام اقتصادي شامل منظم لجميع أوجه الحياة ، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، ألم بهذا النظام بعض التطور ، خاصة اثر نجاح أعمال الفتوحات الكبرى ، فقد أزلت هذه الفتوحات الامبراطورية الساسانية من الوجود ، وحررت الشام ومصر ثم الشمال الافريقي من الحكم البيزنطي ، ونتيجة لهذا تبدلت صورة العالم سياسياً وعسكرياً ، وتغيرت معالمه الاقتصادية ، حيث تغيرت طرق التجارة ، وتبدلت مقاصد التجار وغاياتهم مع أنواع البضائع المتاجر بها ، فلم تعد كل الطرق تقود الى روما بل الى حواضر الاسلام •

لقد اعتبر بعض المؤرخين هذا الحدث من أخطر ما وقع في التاريخ الانساني ، وعده هنري بربين البداية الحقة لقيام العصور الوسطى في أوربة ، ذلك أن أوروبة طوقت الآن بحزام امتد عبر البحر المتوسط من الشرق الى الغرب ، وكانت طبيعة هذا الحزام جديدة من كافة الجوانب : الاقتصادية ، والثقافية ، والقانونية ، والبشرية ، واللغوية والحضارية العامة •

★ ★ ★

ومن المعلوم أن النظام البيزنطي كان قد اعتمد في العمل التجاري والاقتصادي على قواعد اختلفت عما كان موجوداً لدى الامبراطورية الساسانية ، ثم ان البيزنطيين تعاملوا بالوحدة النقدية الذهبية ، وفي المقابل تعامل الساسانيون بالوحدة النقدية الفضية ، ومع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وبداية الاستقرار خاصة مع عصر عبدالملك بن مروان ظهرت الحاجة الى وحدة نقدية رسمية اسلامية ، وهكذا قام عبدالملك بن مروان بتعريب الدنانير مع الدواوين •

فبعد الملك بن مروان الذي يعد عن جدارة المؤسس الثاني للخلافة الأموية ، أدرك أن دولته التي أعاد توحيدها سياسياً ينبغي أن ترتبط بوحدة نقدية ، ونظام اداري واحد ، لهذا شرع في تعريب الدواوين ، وبهذا العمل يمكن القول بأن الدولة العربية المستقلة ، أو بالحري المتميزة ،

جاءت فعلا الى الوجود ، وأن عمليات الفتح العسكري قد بدأت تتحول الى تغيير للأرض والانسان ، وهكذا حلت العربية الشمالية محل الاغريقية واللاتينية والفارسية ، وبذلك طويت صفحة طويلة من صفحات التاريخ القديم ، وبدأت صفحة جديدة ، هي صفحة العروبة وحضارة الاسلام .

وتعريب الدواوين كان من معانيه أيضاً ايجاد طبقة ادارية عربية مثقفة وأذن ذلك ببداية عصر التدوين للأثار العربية والثقافة الاسلامية ، كما أذن بتعريب البلدان الاسلامية ، وساعد على ترويح دعوات المساواة واقامة الأمة الاسلامية الجديدة .

وتوحيد المعاملات النقدية ، وايجاد صيغة تعادلية ثابتة بين الذهب والفضة وهو ما عرف عادة باسم « تعريب الدنانير » لا يقل أهمية عن مسألة تعريب الدواوين ، فالبلاد التي دخلت في حوزة المسلمين انتهى فيها الآن العمل بالأنظمة النقدية المختلفة ، ولقد كان لهذه الأنظمة قبل الغائها أسوأ الآثار على المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية عامة ، كما كانت حائلا دون زوال الحواجز الاقتصادية وبالتالي معيقاً دون قيام وحدة اقتصادية للبلاد الاسلامية ، كما كان للاختلاف بالتعامل النقدي آثار سيئة على عمليات الجباية والصرف داخل الدولة ، ثم ان توضع معالم الاستقرار في الدولة الاسلامية ، والشروع في التميز الحضاري كشرط لنجاح التميز الديني فرض عدم متابعة ضرب النقود حسب طرائق الحكومات البائدة ، فالاسلام يجب ما قبله . ثم ان تحديد التعامل النقدي، وضرب الدينار من قبل الدولة أنهى فترة من الفوضى والاستغلال قامت بسبب الأعمال العسكرية ونتيجة لها .

من هنا يمكن أن نرى بداية تغير الصورة الاقتصادية والحضارية للعالم القديم ، وتطويق أوربة الغربية حيث غرقت في ظلام العصور الوسطى ، بينما عاش سواها في ظل الحضارة العربية الاسلامية الوارف .

ولقد فرض تطور الدولة الاسلامية ، واتساع رقعتها تطوير النظام الاقتصادي فيها ، ولا شك أن الخلفاء مع الفقهاء ورجال الشريعة والادارة قد تعاونوا في هذه المجالات ، وفي نفس الوقت حدثت تجاوزات اقتصادية كبيرة لروح الشريعة الاسلامية ، وقف الفقهاء منها موقف الناقد والمقوم ، وهكذا تجمع مع الأيام لدى المسلمين تراث تشريعي اقتصادي كبير ، ومع قيام حركة جمع التراث الاسلامي والعربي وتدوينه نالت المواد المتعلقة

بالجوانب الاقتصادية حفظها ، وصنفت في أبواب خاصة في داخل المدونات من كتب الحديث وسواها ، ومع قيام مدارس التشريع الإسلامية في القرن الثاني للهجرة وما رافق ذلك من انقلابات اقتصادية ، اهتم بعض المحدثين والفقهاء من هذه المدارس بالجوانب المتعلقة بالحياة الاقتصادية ككل أو جزء ، وهكذا جاء الى الوجود كتب الخراج والأموال ، مثل خراج يحيى بن آدم القرشي ، وخراج أبي يوسف ، والأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والصيغة العامة التي اتسمت هذه الكتب بها هي سمة مصنفات الحديث ، ورواية الآثار ، وارتبطت بالمواضيع الجبائية للدولة ، ولهذا نجد الحاجة كانت قائمة للتصنيف في ميادين الاقتصاد العامة ذات المساس بحياة الناس بشكل عام ، ولعل أشهر من كتب في هذا الميدان محمد بن الحسن الشيباني ، الذي قام في أواخر حياته بتصنيف رسالة في ميدان الاقتصاد العام ، عرفت فيما بعد باسم « كتاب الكسب » . وجاءت هذه الرسالة كأول محاولة في هذا الميدان باللغة العربية .

★ ★ ★

**محمد بن الحسن الشيباني :** وهو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني ولأباً ، كان أصل والده من منطقة الجزيرة حيث كانت ديار شيبان ، لكنه لم يعيش في الجزيرة ، بل في بلدة حرستا في أحواز مدينة دمشق ، ذلك أنه كان من الجند الشامي . وفي أواخر العصر الأموي انتقل الى مدينة واسط عاصمة العراق الأموي الأخيرة ، وفيها ولد له ولده محمد سنة اثنتين وثلاثين ومائة ( ٧٥٠ م ) .

ويبدو أن والد محمد بن الحسن كان ثرياً ، وقد ترك سكنى مدينة واسط ، واستقر في مدينة الكوفة ، ويبدو أن ذلك كان اثر سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية ، وفي كوفة النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة ، كوفة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وكبار العلماء والفقهاء ورجال الأدب واللغة والحديث نشأ محمد بن الحسن الشيباني ، فلقي كبار رجال الفكر فأخذ عنهم ، ويروى أنه عندما « بلغت سنه أربع عشرة سنة حضر مجلس الامام أبي حنيفة ، ليسأله عن مسألة نزلت به ، فسأله قائلاً : ما تقول في غلام احتلم بالليل بعدما صلى العشاء ، هل يعيد العشاء ؟ قال : نعم ، فقام وأخذ نعله ، وأعاد العشاء في زاوية المسجد » وكان هذا أول شيء تعلمه من أبي حنيفة ، ويروى بأن الامام عندما رآه يعيد الصلاة

أعجبه ذلك ، وقال : « ان هذا الصبي يفلح ان شاء الله تعالى » وكان الأمر كما قال ...

حيث « ألقى الله تعالى في قلبه حب التفقه في دين الاسلام » ودخل في روعه جلال مجلس الفقه ، فعاد الى حلقة أبي حنيفة يريد التفقه والتعلم ، فقال له أبو حنيفة : « استظهر القرآن أولاً » لأن المتفقه في الشريعة الاسلامية في حاجة ماسة للقرآن والاحتجاج بآياته لأن للقرآن المنزلة الاولى في العقيدة الاسلامية .

وغاب محمد بن الحسن عدة أيام عاد بعدها الى مجلس الامام أبي حنيفة وقد استظهر القرآن ، وابتدأ حظه بتوجيه سؤال جديد الى الامام ، فقال له الامام : أخذت هذه المسألة من غيرك أم أنشأتها من نفسك ؟ فقال محمد بن الحسن : بل من عندي فقال له أبو حنيفة : سألت سؤال الرجال ، أدم الاختلاف الينا والى الحلقة .

من ذلك الحين بدأ محمد بن الحسن حياته العلمية ، فأقبل بكليته على فقه أبي حنيفة ، ووقف جل وقته على ملازمة حلقاته يكتب المسائل وأجوبتها ، واستمر في حاله هذا أربع سنوات حتى توفي الامام أبو حنيفة ، وبعد ذلك تابع نيله لفقه أبي حنيفة على تلميذه وخليفته من بعده أبو يوسف .

وكان أثناء هذا كله يختلف الى حلقات المحدثين وسواهم في الكوفة ، ويأخذ عنهم ، وعندما شعر بأنه استنفذ تحصيل معارف أهل الكوفة ، قرر الرحلة في طلب العلم ، وكانت شهرة امام أهل المدينة مالك بن أنس قد طارت ومعها شهرة كتابه الموطأ ، لذلك اتجه نحو شبه الجزيرة ، وفي المدينة تعرف الى الامام مالك وأخذ عنه ، وسمع منه الموطأ ودونه من سماعه ، وتعتبر رواية محمد بن الحسن للموطأ من أفضل الروايات له قدماً وصحة وضبطاً ، وحين دون محمد بن الحسن الموطأ دونّه بترو في مدة ثلاث سنوات ، وذكر بعد كل حديث أو فقرة فقهية ما اذا كان ذلك يتفق مع فقه أبي حنيفة أم يختلف - وقد أتيح لي تفحص هذا العمل الجليل في نسخة خطية شبه كاملة من هذا الموطأ هي في حوزتي حيث يمكن وصف عمل محمد بن الحسن فيها بأنه محاولة رائدة في باب الخلاف الفقهي العالمي .

ومفيد أن نشر هنا أنه أثناء أخذ محمد بن الحسن على الامام مالك

جاء محمد بن ادريس الشافعي للأخذ على الامام مالك ، وبذلك حدث التعارف الأول بين الشيباني والشافعي .

وحج الشيباني الى مكة ، وهناك لزم كبار العلماء ، وأخذ عنهم مثل سفيان ابن عيينة وسواه ، كما أنه رحل الى الشام فأخذ عن الامام الأوزاعي ، وزار البصرة وخراسان أخذاً عن كبار العلماء .

وبعدما استكمل رحلاته عاد الى عراق الخلافة العباسية فاستقر في بغداد ، وطارت شهرته ، واختلف التلاميذ اليه ينهلون من علمه ، وقام الخليفة الرشيد بتوليته القضاء ، وأثناء ولايته لهذا المنصب لقيه الامام الشافعي ثانية ، حيث حدث أن الشافعي حمل من نجران الى الرشيد مكبلاً بالحديد متهماً بالتآمر السياسي ، وجرت محاكمته بحضرة الخليفة وحضور القاضي محمد بن الحسن الشيباني مما سهل أمر اطلاق سراحه ، وانقاذه من ظلام الوظيفة واعادته الى نور العلم حيث أن الشافعي قام بالتزام الشيباني لمدة عامين تقريباً أخذ عنه فيهما فقه أهل العراق .

ويبدو أن الامام محمد بن الحسن لم يمكث في القضاء طويلاً حيث تخلى عنه واعتزل العمل الاداري ، ووقف نفسه على الفقه تعليماً وتصنيفاً ، وبعمله هذا بنى عملياً مذهب أبي حنيفة ، ذلك أن التراث الفكري المدون لفقه أهل العراق جله من انتاج الامام الشيباني الذي يمكن اعتباره لهذا الباني الفعلي للمذهب الحنفي .

لقد جاء طلاب العلم الى الامام الشيباني من مشارق العالم الاسلامي ومغاربه ، وكان أبرز من أخذ عليه من أهل الغرب الاسلامي أسد بن الفرات ، فاتح صقلية ، وصاحب المدونة الأولى في تاريخ الفقه المالكي ، حيث أن مدونته هي أصل مدونة الامام سحنون الشهيرة .

لقد تحدث أسد بن الفرات عن اتصاله بالامام مالك ثم سفره الى العراق حيث لزم محمد بن الحسن الشيباني ، وذكر أنه قال في احدي المناسبات : « اني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نزر والطلب عندك كثير فما حيلتي ؟ » فقال لي : « اسمع من العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتأتي فتبيت عندي وأسمعك » قال أسد : « فكنت أبيت عنده ، وكنت ( معه ) في بيت في سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل اليّ ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه ماء ثم يأخذ في القراءة ، فاذا طال عليه الليل

ورآني قد نعست ، ملأ يده ونضح به في وجهي ، فأنتبه ، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه » .

في هذا الحديث صورة رائعة تعبر عن مدى حرص الامام محمد بن الحسن الشيباني على مساعدة طلاب العلم خاصة الغرباء منهم ، وتكتمل بعض جوانب هذه الصورة وتزداد روعة فيما ذكره أيضاً أسد بن الفرات بقوله : وكنت يوماً جالساً في حلقة محمد بن الحسن ، حتى صاح صائح الماء للسبيل ، فقمت مبادراً فشربت من الماء ، ثم رجعت الى الحلقة ، فقال لي محمد بن الحسن : يا مغربي شربت ماء السبيل ؟ فقلت : أصلحك الله ، وأنا ابن سبيل ، قال : ثم انصرفت ، فلما كان الليل اذا بانسان يدق الباب فخرجت اليه ، فاذا خادم محمد بن الحسن ، فقال : مولاي يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ما علمت أنك ابن سبيل الا في يومي ، فخذ هذه النفقة فاستعن بها على حاجتك ، ثم دفع الي صرة ثقيلة ، فقلت في نفسي : هذه كلها دراهم ، ففرحت بها ، فلما دخلت منزلي فتحتها فاذا فيها ثمانون ديناراً (١) .

لا يعلم بين سير الأئمة الا ندرة صبروا صبر محمد بن الحسن في تعليم تلاميذه ، وآثروهم في الانفاق والوقت ، ولا عجب ، فالشيباني كان اماماً عاملاً آمن بالاسلام عن فهم وعقل ، واتخذ سيرة النبي المصطفى مثله الأعلى .

لقد زق محمد بن الحسن أسد بن الفرات بالعلم زقاً ، وكان الامام مالك قد توفي . وفي طريق عودته الى القبروان حمل معه زاداً عظيماً دونه في كتاب عُرف بالمدونة الأسدية ، وهي كما أشرت أصل مدونة سحنون ، وعليها قام فقه المالكية ، وهكذا نرى الأثر العظيم لمحمد بن الحسن اسلامياً شاملاً ، فهو الباني الفعلي للمذهب الحنفي ، وهو من جهة ثانية أستاذ الامام الشافعي ، ومن طرف ثالث أستاذ أسد بن الفرات ، ولا عجب أن قال عنه الامام الشافعي : « لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت ، لفصاحته ، وقد حملت عنه وقر بختي كتباً » وقال : « مارأيت أحداً يُسأل عن مسألة فيها نظر الا تبينت الكراهة في وجهه الا محمد بن الحسن » (٢) .

١ - رياض النفوس للمالكي - ط . القاهرة : ١٧٣/١ - ١٧٦ .  
٢ - تاريخ بغداد للمخطيب البغدادي : ١٧٥/٢ . فوات الوفيات لابن أبيك : ٣٣٣/٢ .

وكما سلفت الإشارة عمل الامام محمد بن الحسن في القضاء فترة وجيزة ، وكان له علاقات بالخليفة الرشيد ، انما يلاحظ أن هذه العلاقات ظلت متوازنة ، حافظ فيها على رونق العلم ، وجلالة العلماء ، فقد ذكر أحد معاصريه قال : « كنا مع محمد بن الحسن ، اذ أقبل الرشيد ، فقام اليه الناس كلهم الا محمد بن الحسن ، فانه لم يقم ، وكان الحسن بن زياد ثقیل القلب ، ممتلىء البطن على محمد بن الحسن ، فقام ودخل الناس من أصحاب الخليفة ، فأمهل الرشيد يسيراً ، ثم خرج الآذن ، فقال : محمد بن الحسن ، فجزع أصحابه له ، فأدخل فأمهل ، ثم خرج طيب النفس مسروراً ، فقال : قال لي : مالك لم تقم مع الناس ؟ قلت كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها ، انك أهلتني للعلم ، فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه ، وان ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار » وأنه انما أراد بذلك العلماء ، فمن قام بحق الخدمة واعزاز الملك فهو هيبة للعدو ، ومن قعد اتبع السنة التي عنكم أخذت ، فهو زين لكم ، قال : صدقت يا محمد » .

كان محمد بن الحسن قوي الذاكرة ، شديد الوعي ، سريع البديهة ، أتقن صناعة القياس واستخدام الرأي بشكل بارع للغاية ، انما في حدود الشريعة وفي نطاق معطياتها ، قبل بأنه لما اتصل بالامام مالك سألته : « ما تقول في جنب لا يجذ الماء الا في المسجد ؟ فقال مالك : لا يدخل الجنب المسجد ، قال : فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة ، وهو يرى الماء ؟ قال : فجعل مالك يكرر : لا يدخل الجنب المسجد ، فلما أكثر عليه : قال له مالك : فما تقول أنت في هذا ؟ قال : يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ، ويخرج فيغتسل » . قال : من أين أنت ؟ قال : من أهل هذه - وأشار الى الأرض - فقال : ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه ، فقال : ما أكثر من لا تعرف ، ثم نهض ، قالوا لمالك : هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، فقال مالك : محمد بن الحسن كيف يكذب ، وقد ذكر أنه من أهل المدينة ؟ فقالوا : انما قال : من أهل هذه ، وأشار الى الأرض ، قال : هذا أشد عليّ من ذاك » (٣) .

توفي محمد بن الحسن سنة تسع وثمانين ومائة ( ٨٠٤ م ) في مدينة الري - قرب طهران الحالية - وقد كان خصب الانتاج ، وهو بسبب ذلك



اعتبر فقيه مدرسة العراق الأعظم مكانة ، ومدون تراث هذه المدرسة ، وقد كتب محمد بن الحسن عدداً كبيراً من الكتب وقفها على مواضيع فقهية عامة متعددة ، كما كتب بعض الرسائل وقف كل منها لموضوع فقهي خاص ، وكان آخر ما كتبه قبيل وفاته كتاب الكسب .



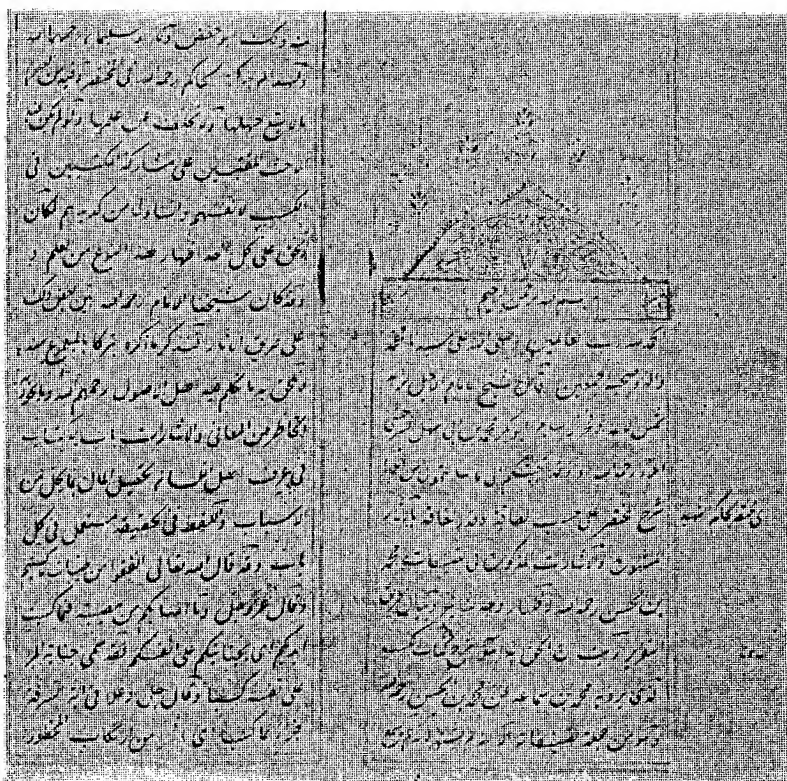
### كتاب الكسب

روى هذا الكتاب عن محمد بن الحسن تلميذه محمد بن سماعة التميمي ، كما شرحه فيما بعد الامام السرخسي كما شرح غيره من كتب الشيباني ، لكن جاء شرحه منفصلاً ولم يدخله في مجموعة المبسوط العملاقة .

لقد جاء هذا الكتاب بالأصل صغير الحجم ، أملاه صاحبه على طريقة الآثار ، وكان من دوافعه الى تصنيفه ، وذلك بالاضافة الى تلبية الحاجة ، الرد على حركة الزهد الأعجمي التي نشطت في القرن الثاني للهجرة مع نشاط الديانة المنانية ( حركة الزندقة ) والحركة الشيعية ، كما حوى بعض الردود على جماعة القدرية ، وفي مسار الردود هذه استعرض الشيباني مشكلة الكسب وموقف الشريعة منها ، مبيناً أوجه الحلال والحرام مع طرائق وقوانين الكسب ، مستشهداً خلال ذلك كله بالعديد من الآيات والأحاديث والآثار المروية .

ولعل من الأفضل قبل الاستطراد في الحديث عن محتويات هذا الكتاب بشكل مفصل أن نبين ، أن كتاب الشيباني هذا عظيم القيمة ، لأنه يحوي خلاصة فكر بانى المذهب الحنفي ، ومواقفه خاصة مشكلة الحرية في التصرف الاقتصادي وحق السلطة في التدخل والتسعير ، ثم كما قلت سابقاً هذا الكتاب المبكر التاريخ هو المحاولة الأولى في العربية في بابيه .

لقد صنف هذا الكتاب في مرحلة مبكرة للغاية في تاريخ الأدب العربي ، لهذا تميز بعدة مزايا ، فجاء عرض موضوعاته كتلة واحدة ، ثم ان المصنف لم يقيم بتقسيم الكتاب الى عدة أقسام يتناول في كل منها واحداً من المواضيع ، بل نراه يقوم بتناول الموضوع الواحد في أكثر من مكان ، وعدة مرات بشكل موجز أو واسع .



الصفحة الاولى من المخطوط

في مطلع الكتاب تعرض المصنف الى تعريف « الكسب » فقال :  
 الاكتساب « تحصيل المال بما يجعل من الأسباب » وهنا تحدث بشكل عام  
 عن جوانب الاكتساب وضرورة القيام به ، كما بين أنواع المكتسبات  
 بشكل عام ، ودعم ما ذهب اليه بعدد من الآيات القرآنية والأحاديث  
 النبوية ، مبيّناً أن لفظ « الاكتساب » بشكل عام يتناول المال ، ولكن  
 الانسان قد يكسب أشياء كثيرة غير المال منها ما يفيد بها نفسه ، ومنها  
 ما يضرها به .

ان العصر الذي عاش فيه محمد بن الحسن الشيباني قد تميز  
 بالصراعات بين عدة تيارات دينية وفكرية ، فقد شهد هذا العصر محاولات  
 الديانات التي كانت موجودة قبل الاسلام للعودة الى النشاط بشكل صريح  
 ومباشر أو شكل غير مباشر ، وكان من أهم هذه الديانات « الديانة المنانية »

التي جاء بها ماني في القرن الثالث للميلاد ، والتي مزج فيها بين تعاليم الزرادشتية والمسيحية والغنوصية واليهودية وسواها ، وعرف نشاط هذه الديانة عند المسلمين باسم حركة الزندقة ، وحاربت الزندقة ضد الاسلام بشكل مباشر ، أو عن طريق الشعوبية ، أو بواسطة ايجاد حركة زهد منانية المحتوى ، اسلامية المظهر ، سلبية السلوك ، تريد انهاء الحياة بالغاء العمل والكسب ، وبالأخذ بعدم الحركة والخمول الى غير ذلك ...

وقد تجرد عدد كبير من علماء العرب للرد على « المنانية » والتصدي لما قدمته بشكل مباشر أو غير مباشر من أفكار ، ويمكن أن ننظر الى كتاب الكسب ومشكلة المحرض على تصنيفه من هذه الزاوية .

روى المصنف في مطلع الكتاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طلب الكسب فريضة على كل مسلم كما أن طلب العلم فريضة » وبين بشكل فيه نظرة اجتماعية واسعة قائمة على المزج بين المفاهيم الدينية والدنيوية فقال : طلب الكسب يمكن من أداء الفرائض بقوة البدن ، لأن الكسب يجلب القوت ، ولتحصيل القوت طرق هي : « الاكتساب ، أو التغالب أو الانتهاب » وبالاكتساب يستوجب الانسان العقاب ، وفي التغالب فساد ، وعلى هذا « في الكسب نظام العالم » « وفي تركه تخريب نظامه » .

ويتم الاكتساب بالكد والتعب ، وهنا تأتي منافع الاكتساب عامة وضرورية ، فالزارع يكسب لنفسه ، لكنه يفيد بانتاجه الجماعة ، والصانع يفعل نفس الشيء ، ولا يمكن أداء العبادات بدون كسب ، فالصلاة مثلاً تقتضي الوضوء ، والمتوضيء يحتاج الى الماء ، والماء لا بد له من وعاء يوضع به ، كما أن المصلي يحتاج الى الثوب لأنه لا يمكنه أداء الصلاة عارياً ، وعلى هذا كان العمل للكسب فرضاً « لأن ما لا يتأتى اقامة الفرض الا به يكون فرضاً في نفسه » .

والكسب يكون بواسطة أربعة أصناف من العمل هي « الاجارة والتجارة ، والزراعة والصناعة » وقد بين ابن الحسن أن بعض الناس يفاضل بين هذه الأصناف ، والبعض الآخر يراها متساوية ، ومسألة المفاضلة هذه يمكن أن نرى فيها صدى للصراع بين طبقات المجتمع أيام تصنيف الكتاب .

وقد أوضح الامام الشيباني بأن المجتمع بحاجة الى جميع الأصناف ،

ونظراً لذلك فالمفاضلة باطلة ، وهنا تعرض المصنف الى مسألة خطيرة ، وخاصة على صعيد الحرية المطلقة في المذهب الحنفي .

فأبو حنيفة مؤسس هذا المذهب كان بالأصل تاجراً ، ولهذا آمن بالحرية التجارية ، وبعدد جواز تدخل الدولة في أي جانب من جوانب العمل التجاري ، خاصة قضية التسعير حيث أن المسعر هو الله .

بعدما بين الامام الشيباني أن الكسب مباح ، لا بل هو فرض ، طرح سؤالاً محتواه : الى أي حد على الانسان أن يعمل ليكسب ؟ فقال : ان البعض يرى أن الكسب مباح بلا حدود ، وقام هو برفض هذا الرأي ، وبين أن رأي جمهور الفقهاء أن الكسب ينبغي أن يكون فقط في حدود الحاجة والمنفعة الخاصة العامة ، وأوضح أن في انصراف الانسان في جميع أوقاته للكسب خروج على أوامر الله وما تحتاجه الحياة من توازن وتوزيع للجهود والوقت ، فالانسان مندوب للعبادة مفروض عليه التفرغ للعلم ، والاقبال على العلم فيه عظيم المنافع للناس جميعاً .

وفقط « الكسب بقدر ما لا بد منه فريضة » وما تجاوز الحاجة يغدو جناية ، وما لا بد منه هو تأمين الكفاية للنفس والعيال والأهل ، بما يقيم الأود ويسد الحاجة ، ويزيل الدَّين ، وفي هذا المقصد روى المصنف عن أبي ذر الغفاري قوله : « أفضل الأعمال بعد الايمان الصلاة وأكل الخبز ، ولولا الخبز ما عبد الله تعالى » .

ان الانصراف المطلق الى الكسب أي تحصيل المال وجمعه فيه اخلال بنظام الحياة ، ذلك أن ثروات الدنيا تكفي فقط الناس جميعاً ، واحتكار البعض زيادة عن الآخرين فيه اخلال بالتوازن لا يجوز الرضى به والسكوت عنه ، وبعد هذا استطرد الامام الشيباني ليوازن بين الفقر والغنى ، فيبين أن كثيراً من الناس يفضل الغنى والأغنياء ، وهنا أوضح أن هذا انحراف ذلك أن في الغنى طغيان ، واستشهد بقوله تعالى : « كلا ان الانسان ليطغى » ( العلق : ٦ ) وقوله سبحانه : « الذين طغوا في البلاد » ( الفجر : ١١ ) وقال : ان القناعة خير من الفقر والغنى « ولو أن الناس قنعوا بما يكفيهم وعمدوا الى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم كان خيراً لهم » ذلك أن « ما زاد على ما لا بد منه يحاسب المرء عليه » وفي جميع الأحوال في الكسب لتحصيل الغنى استرسال في اتباع الشهوات ، وصحيح أنه « زين للناس حب الشهوات » ( آل عمران : ١٤ ) ولكن الذين « اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » ( مريم : ٥٩ ) .

ان في هذا التفكير ليس عدول منهجي عظيم في فقه المذهب الحنفي وانما زيادة مبكرة في التشريع الاجتماعي - أو ما يدعى حالياً باسم النظرية الاشتراكية - وهي نظرة اسلامية أصيلة ، قدم المصنف بعض جوانبها الأخرى حين تحدث عن أن المجتمع لا بد من أن يوجد فيه من يحتاج الى اطعام وكساء وغير ذلك ، نظراً لعجزه لاقعاد السن له ، أو لمرض معوق ، وهنا قال كما يفترض على امة فداء من يقع من أفرادها في أسر الأعداء عليها « اطعام المحتاج في الوقت الذي يعجز عن الخروج والطلب » وأوضح ابن الحسن في هذا المجال أنه « لا يجوز للمقادر السؤال ولا الأخذ » بل عليه الكسب .

وبعد ما عرض لمسائل الكسب ، تعرض الامام الشيباني لقضايا الانفاق ، فانه تعالى بعد ما حض على الكسب ، أمر عباده بالانفاق بقوله : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » ( البقرة : ٢٦٧ ) وهنا على الانسان عدم الاسراف في الطعام والاستكثار من المباحات والألوان ، فمن « الاسراف أن يضع المرء على المائدة من ألوان الطعام فوق ما يحتاج اليه للأكل . . . ومن الاسراف أن يأكل وسط الخبز ويدع حواشيه ، أو يأكل ما انتفخ من الخبز . . . ومن الاسراف التمسح بالخبز عند الفراغ من الطعام » . .

وكما يتصرف المرء تجاه الطعام عليه أن يفعل في الملبس والمسكن وغير ذلك مما يرتبط بالحياة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد « نهى أن يلبس نهاية ما يكون من الحسن والجودة في الثياب على وجه يشار اليه بالأصابع » بل أوصى بلبس الثوب الجيد وترك السيء لأن الأصل في الثوب ستر العورة ودفع أذى الحر والبرد ، وكان صلى الله عليه وسلم يهتم في عامة أوقاته بالنظافة والانسجام ، ويرتدي في المناسبات من أعياد ومواسم بعض الثياب الرائعة .

وأثناء عرض المؤلف لمشكلة الطعام واللباس يمكن استخلاص بعض الصور الحضارية عن حال المسلمين في القرن الثاني للهجرة والتعرف الى أنماط من مشاكلهم آنذاك ، فهم مثلاً كانوا يتجادلون حول بناء المساجد وزخرفتها والتأنيق في المآذن مع مشاكل التخصيص للبيوت والمساجد ومشاكل استخدام الأثاث وأنواعه الى غير ذلك مما هو ثمين للغاية للمؤرخ الحضاري .

وكما سلفت الإشارة ان جميع ما عرضه الامام ابن الحسن جاء من أحد الجوانب رداً على أصحاب تيار الزهد الأعجمي ، لم يكتف بهذا بل قام بالرد المباشر وذلك بعد عرض لأقوالهم وأفكارهم بقوله : « وقال قوم من جهال أهل التقشف وحماقى أهل التصوف : ان الكسب حرام لا يحل الا عند الضرورة بمنزلة تناول الميتة . . . » .

ولقد جاءت ردوده المباشرة مفحمة اعتمد فيها النقل والعقل حيث قدم عدداً من الآيات والأحاديث النبوية التي تأمر بالكسب وتحض عليه ، ثم ذكر بأن الكسب هو طريق المرسلين ، ونحن قد أمرنا بالاعتداء بهم ، فأدم كان مزارعاً ، ونوح كان نجاراً ، وإبراهيم كان بزازاً ، وداود عمل في صناعة الدروع ، وزكريا كان نجاراً ، وعيسى كان يأكل من أجر غزل أمه ، والنبى محمد عمل في التجارة وغير ذلك مثل رعاية الأغنام ، ثم ان الصحابة جميعاً كانوا يكسبون ، فأبو بكر كان بزازاً ، وكان عمر يعمل بالأدم ( الجلد ) وعثمان كان تاجراً ، وقد أجر عليّ نفسه أكثر من مرة ليكسب قوت يومه .

والانسان على الرغم من الاقرار بأن الله قد قدر رزقه ، ولاراد لقدر الله ، يفترض عليه الكسب ، فالمؤمن مطلوب منه الدعاء مع القدر ، والنبى كان يدعو الله لنفسه ولأصحابه بالمغفرة والجنة رغم معرفته بأنه سيدخل الجنة ، ومعلوم أننا مطلوب منا استعمال الدواء أثناء المرض ، رغم أن الشافي هو الله جلّت قدرته .

وبعد هذا التفت الى أهل الزهد الأعجمي وخاطبهم بهزء وازدراء ونعى عليهم قبولهم طعام من أطعمهم من أهل الكسب ، كل هذا رغم أن الكاسب قد اقتترف الحرام بكسبه . . . المسألة ليست كذلك ، انها كسل وذل ، وسعي ليدخل الى الاسلام ما ليس منه .

★ ★ ★

ومن قراءة أواخر رسالة الكسب يلاحظ أن الامام ابن الحسن بعدما فرغ من تصنيف رسالته في « الكسب » أراد أن يصنف رسالة خاصة في الورع ، وبالفعل شرع بذلك لكن بعدما مضى في عمله قليلاً « اعترض له داء فجف دماغه ولم يتم مراده » . . .